اسم المادة الدراسية عربي : أدب عصور متأخرة .

اسم المادة الدراسية الانكليزي :Literature of Later Ages

اســـم المحاضـــرة : الشـــاعر شـــرف الـــدين البوصـــيري (حياته وشعره).

اسم التدريسي : أ. د. محمد عويد محمد الساير .

المستوى الدراسي : الثالث .

الدراستان : الصباحي / المسائي .

الاسبوع : العاشر .

شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري (٦٠٨ – ٦٩٥ هـ) حياته وشعره.

اشتهر شاعران بكثرة الشعر وجودته في مدح الرسول محمد ﷺ ، الأول عراقي ، هو الإمام يحيى بن يوسف الصرصري المعروف بشاعر رسول الله المقتول شهيدا بيد التتر سنة ٦٦٦ للهجرة، والثاني مصري هو الإمام البوصيري . .

ولد شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد في مدينة دلاص بصعيد مصر غربي النيل، يوم الثلاثاء مستهل شوال سنة ٦٠٨ للهجرة، وكان أبوه من بوصير ، وهي إحدى القرى القريبة من الفيوم بمصر . ويتفق المؤرخون على انتمائه إلى قبيلة صنهاجة التي عاشت في بلاد المغرب وقد أشار البوصيري إلى ذلك في شعره ، فقال:

فقلُ لنا من ذا الأديبُ الذي زاد به حبّي ووسواسي
إن كان مثلي مغربياً فما في صحبةِ الأجناسِ من باسِ
وإن يكذِّب نسبتي جئته بجبتي الصوف ودفّاسِ

تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن في أول حياته ، ثم أقبل على الفقه والحديث وأيام الحرب والأنساب والأخبار واللغة والأدب .. و أخذ من كل ذلك قسطا وافرا ، وجاء إلى القاهرة ، والتحق بمسجد الشيخ عبد الظاهر ، وانتفع بما ينعقد فيه من مجالس علم وحلقات درس ، ويبدو أنه أخذ يعلم الطلبة في هذا المسجد قراءة القرآن وتجويده ، إذ جاءت في ديوانه قصيدة يشكو فيها إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد (ت٦٤٧هـ) حرمان مسجده من عطاياه التي أقرها صدقة لطلبة المدارس ، وكانت ثلاثة آلاف دينار:

ليت شعري ما مُقتضى حرماني دون غيري والإلفُ الرحمنِ
أتراني لا استحقُّ لكوني جامعاً شمل قارئي القرآنِ
أم لكوني في إثر كل صلاة بي يدعى لدولة السلطانِ
وبأي الأسباب يعطى مكان صدقات السلطان دون مكانِ

التحق البوصيري بالوظيفة قبل التحاقه بشيخه المشهور أبي العباس أحمد بن عمر المرسي أحد قادة التصوف في ذلك العصر (ت ٦٨٦هـ)، وتولّى الجبايات بالشرقية، ثم تولى الكتابة في بلبيس ، وهي مدينة بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ على طريق الذاهب نحو الشام ، وكان عفيفا نزيها، وقد آلمه أخلاق الموظفين الرديئة ، ودناءتهم، وسوء معاملتهم للناس، و أشار إلى ذلك في قصيدة له بلغت تسعة وتسعين بيت ، جاء فيها:

ثكلتُ طوائفَ المستخدمينا فلم أر فيهم رجلاً أمينا
فخذ أخبارهم مني شفاهاً وأنظرني لأخبر اليقينا

فقد عاشرتُهم ولبثتُ فيهم مع التجريبِ من عمري سنينا
فكم سرقوا الغلالَ وما عرفنا بهم ، فكأنهم سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريراً ولا شربوا خمور الأندرينا

لم يصبر على ما كان يرى في دوائر الدولة من فاقدي الذمة والضمير من أعمال مقرفة وأفعال مذمومة ، فاعتزل الوظيفة وانزوى في بيته صابرا محتسبا ، واتخذه مكتبة لتحفيظ القرآن الكريم ليكسب عيشه بشرف وكرامة وقد أشار إلى ذلك بقوله:

ما زلت أرغب أن أكون معلماً فيكون فضلي مكملَ الإعلامِ
قد صار كتّابي وبيتي من بني غيري وأبنائي كبرج حمامِ

وكان كثير من رجال عصره يزورونه ، وينتفعون من علمه ، مثل أبي الفتح بن سيد الناس اليعمري (ت ٧٣٤ هـ) ، وأثير الدين أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) .

وأصيب في أخريات أيامه بمرض عضال أقعده عن الحركة ، وكان قد تجاوز الثمانين من العمر ، وتوفي بمدينة الإسكندرية سنة ٦٩٥ للهجرة ، وله فيها قبر مشهور يتصل به مسجد تدرس فيه العلوم الدينية.

شعره : نظم البوصيري شعرا كثيرا ، صور فيه حياته الخاصة خير تصوير ، وكذلك حياة المجتمع المصري في القرن السابع للهجرة فهو طورا في زي الصوفي المتقشف ، وطورا في ثوب المتطرف ، وبه قصائد في شكوى حاله والتذمر من الموظفين المتلاعبين بمقدرات الناس بمصر في ذلك الحين.

وشعره سهل في روحه وأسلوبه ، ولا سيما الذي **انتقد فيه موظفي الدولة** و مستخدميها ، مثل قصيدته الطويلة التي كشفت فيها الأعمال المريبة التي قام بها عمال أسوان والصعيد ، وأولها:

انظرْ بحقّك في أمر الدواوين فالكل قد غيروا وضع الدواوينِ
لم يبقَ شيء على ما كنت تعهده إلا تغيّرَ من عال إلى دونِ
الكاتبونَ وليسوا بالكرام فما منهم على المال إنسان بمأمونِ

ثم يبين أخلاق هؤلاء الموظفين الفاسدة وجشعهم المفرط ، واستلابهم ما ملكت أيدي الناس ظلما وعدوانا.

وطاعنوا الناس بالأقلام واستلبوا منهم بها كل معلوم و مكنونِ
ومن مواش وأطيار وآنيه ومن زروع ومكيول وموزونِ

ويحرض السلطان على النهوض لمحاسبتهم بنفسه، وضربهم بلا رحمة ، وتجريدهم من وظائفهم، وتخليص الأمة من شرورهم لأنهم - في نظره - أخطر من قوم هولاكو والإفرنج الذين اجتاحوا الديار من الشرق والغرب :

فقل لسلطان مصر والشام معا يا قاهراً غير مخفي البراهينِ
اكتشف بنفسك أسواناً ومن معها من الصعيد بلا قوم مساكينِ

وخـــل غـــزو هولاكـــو والفـــرنس معـــا وانهـــض بفرســـانك الغـــر الميـــامينِ
واســـلبهم نعمـــة قـــد شـــاطروك بهـــا كمـــا يشـــاطر فـــلاح الفـــدادينِ

ونجد مثل هذا الشعر الواضح في لغته ، وطريقة عرضه ، في قصيدته التي رفعها إلى الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم، تناول فيها وصف حالته، و أوضاع **أسرته المتكاثرة المعدمة** ، التي تفتقر إلى أبسط مستلزمات الحياة الكرة الكريمة ، قال :

يـــا أيهـــا المـــولى الـــوزير الـــذي أيامـــــــه طائعـــــــة أمـــــــرهْ
ومـــن لـــه منزلـــه فـــي العلـــى تكـــل عـــن أوصـــافها الفكـــرهْ
إليـــك نشـــكو حالنـــا إننـــا عائلـــة فـــــي غايـــــة الكثـــــرهْ
صـــاموا مـــع النـــاس ولكـــنهم كـــانوا لمـــن يبصـــرهم عبـــرهْ

إن هذا الشعر الهابط فنياً أخذ **طابعاً شعبياً** ، وهو شبيه بطلب استراحم أو استجداء، عرض فيه حالة أطفاله وهم يتضورون جوعا قاسيا ويتلوعون من مرارة الحرمان من النعمة الوفيرة التي يرونها عند الآخرين.

وسخّر البوصيري جانبا من شعره المديح رجال السلطة كي يكسب ودهم وينال رفدهم ، مثل قصيدته الطويلة التي بلغت مئة وسبعة وخمسين بيتا في **مدح الملك المنصور قلاوون** بعد أن بني مدرسة كبيرة للحديث والفقه وإلى جوارها مستشفى سنة ٦٨٤ للهجرة، مطلعها :

جـــوارك مـــن جـــور الزمـــان يجيـــر وبشـــرك للراجـــي أنـــداك بشـــيرُ

ويتناول في هذه القصيدة شجاعة هذا الملك وبسالته في محاربة الإفرنج ، ويبالغ في وصف سخائه وكثرة عطائه الذي عم الورى :

مكارمـــه لـــم تبـــق فقـــرا ورأيـــه إلـــى بعضـــه أغنـــى الملـــوك فقيـــرُ
محيـــاه طلـــق باســـم ، روض كفـــه أريـــض ، ومـــاء البشـــر منـــه نميـــرُ

وكانت عند البوصيري نزعة إلى التقوى ، جعلته ينصرف إلى العبادة ، ويتعرف على كبار المتصوفة ، ويقضي فريضة الحج . وكان شعره في الحقبة الأخيرة من حياته منصبا على الدفاع عن المسلمين ، **ومديح الرسول** ﷺ ، والاشادة بفضائله ، ومعجزات رسالته الباهرة . وقد وصل الينا من نظمه في هذا المجال إحدى عشرة قصيدة وثلاث مقطوعات . وتعد همزيته من أطول القصائد ، إذ بلغت أربع مئة وسبعة وخمسين بيتا ، تناول فيها سيرة الرسول الكريم بتفصيل سردي ، مطلعها:

كيـــف ترقـــي رقيـــك الأنبيـــاءُ يـــا ســـماءً مـــا طاولتهـــا ســـماءُ

وله قصيدة في مئتين وأربعة أبيات سماها (ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد)، مطلعها:

إلـــى متـــى أنـــت باللـــذات مشـــغولُ و أنـــت عـــن كـــل مـــا قـــدمت مســـؤولُ

وتعد قصيدته المشهورة بـ «البُردة»- من اكثر قصائده المدحية انتشاراً، ومطلعها:

أمــن تــذكرِ جيــرانٍ بــذي ســلمِ مزجــتَ دمعــا جــرى مــن مقلــةٍ بــدمِ

وقد جعلها الباحثون أفضل قصيدة في المديح ، وتفوقت على بردة كعب ابن زهير من حيث التأثير الفني والموضوعي في الأجيال اللاحقة ، وذلك حين غدت النموذج او المثال الذي ينبغي أن يحتذي به شعراء النبويات من بعده.

وهي التي مكنت البوصيري من ناصية المجد الأدبي ورفعته إلى منزلة الخلود وجعلت منه إمام هذا الفن وزعيما له على مر العصور.

وبهرت هذه القصيدة الشعراء منذ القرن الثامن الهجرة ، وتزاحموا على معارضتها وتشطيرها وتخميسها وتسبيعها ، إلى شرحها والتعليق عليها تاريخيا ولغويا وبلاغيا وعقائديا ، وكذلك ترجمتها إلى لغات كثيرة مثل التركية والفارسية والبربرية واللاتينية والروسية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية. وتجاوز تأثيرها إلى فن الخط ، حيث تبارى الخطاطون في نسخها ، وتفننوا في نقشها برقائق الذهب. أما المناسبة التي استدعت نظم قصيدة البردة ، فقد ذكرها ابن شاكر الكتبي، وخلاصتها أن البوصيري أصيب بالفالج، ونظم هذه القصيدة وقرأها بين يدي النبي في منامه ، وقد أعجب بها ، والقي عليه بردته ، فانتبه وهو معافى من مرضه. والرواية - على ما يبدو - من نسج الخيال ، إذ ذكر ناقلو هذه القصيدة أن البوصيري لما وصل إلى قوله : «فمبلغ العلم فيه " أنه بشر"» ، توقف ، فقال له النبي : قل يا إمام : «وأنه خير خلق الله كلهم»، فأدرج البوصيري هذا الصراع في قصيدته ، وهذا غير صحيح ، إذ ورد عجز هذا البيت في إحدى قصائد الإمام الصرصري. لقد وصف البوصيري في مدائحه النبوية شمائل الرسول الكريم وخصاله ، وذكر شيئا من سيرته ، وطرفا من مزايا رسالته العظيمة، ونضاله في نشرها، وضمنها نصائح وارشادات، ودعا إلى رياضة النفس، وتهذيبها في صدق نظر، وخلوص نية، من ذلك قوله :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حبِّ الرضاعِ وإن تفطمه ينفطمِ
فاصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يُصم أو يَصمِ
وراعها وهي في الأعمال سائمة وإن هي استحلت المرعى فلا تسمِ
كم حسنت لذة للمرء قاتلةً من حيث لم يدر أن السُم في الدسمِ
يا أكرم الرسلِ ما لي مَن ألوذُ بهِ سواكَ عند حلولِ الحادثِ العَمِمِ